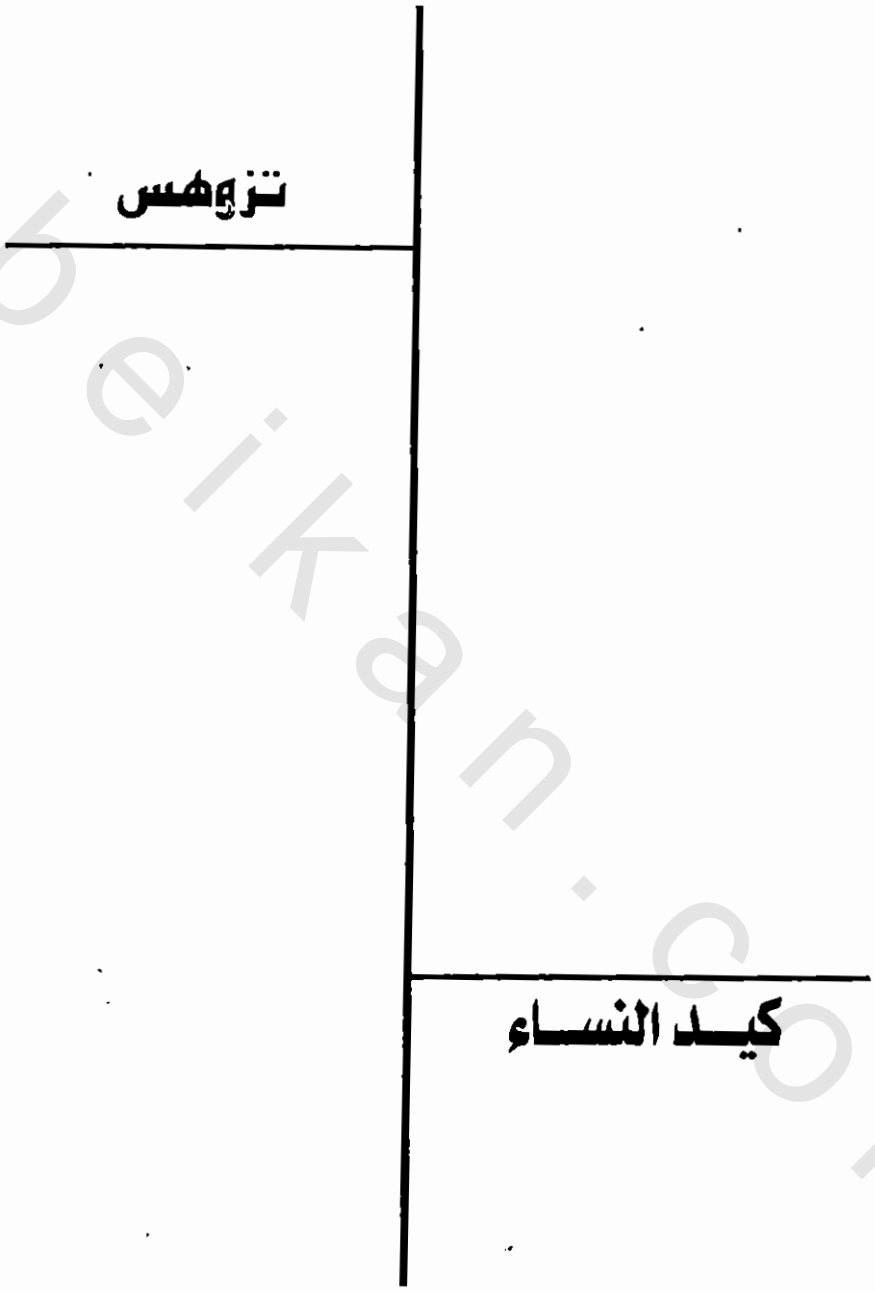

obeikan.com

obeikan.com

تزوهس

إمبراطورة الصين

أشرفت الإمبراطورة الأم بنفسها على مسابقة ملكات الجمال من بين ستين فتاة تم ترشيحهن ليكن محظيات في قصر الإمبراطور وأسفرت التصفية الأولى للإمبراطورة الأم عن اختيار ثمان وعشرين فتاة ثم أجرت بينهن تصفية نهائية لتفوز "يهوننله" بالمركز الأول .

كانت "يهوننله" ابنة الأربعة عشر ربيعها ابنة أحد كبار الموظفين المنشوريين مات أبوها ولخوف أمها عليها لم تكن تجعلها تتجاوز جدران البيت إلا إلى الحديقة ، فقضت وقتها في قراءة الأدب والفن والتاريخ ، ولم تكن الفتاة تدرى أن أمها تحلك أن تكون ابنتها الجميلة إحدى نساء المدينة المحرمة في بكين - إحدى الزوجات الثانويات للإمبراطور - رغم أنها ليست من أسرة ملكية أو حتى إحدى محظياته .

بدأت أحلام الأم تتحقق حين أصدر الإمبراطور منشورا يقضى بأن تحضر إلى الحريم كل فتاة منشورية بلغت سن الرشد وتم اختيار ستين فتاة كانت هي من بينهن ، أخذهن ضابط الحرس المنشورى الشاب وجنوده إلى المدينة المحرمة ، وفى الطريق هاجمهم برابرة الشمال لاختطافهم ، لكن الضابط وجنوده تصدوا لهم وقهروهم وقضوا عليهم ، وواصل الموكب مسيره إلى بكين وبعد أن تم اختيارها دخلت بها الإمبراطورة الأم على الإمبراطور لتقدمها كمحظية له .

رأت الإمبراطور ينحنى أمام الإمبراطورة الأم فعرفت مكانتها لدى الإمبراطور ولذا سعت من البداية لكسب رضاها ، وبالفعل استطاعت كسب رضاها ورضا الإمبراطور أيضا بجمالها الأخاذ وثقافتها الواسعة ، وكان نتيجة ذلك أن رقتها الحماة إلى مقام المحظية الأولى بين الحريم الإمبراطورى .

كان الإمبراطور الشاب خامل وكسول أصيبت البلاد في عهده بالضعف وأصيب الناس بخيبة الأمل وأحسوا أنه سوف يكون آخر الأباطرة من أسرة المانشو بسبب ضعفه ، ليس بسبب الضعف فقط ولكن لأنه لم ينجب وليا للعهد .

دفع ضعفه أحد الثوريين الوطنيين بمحاولة انقلاب عام ١٨٥٣ واستولى بالفعل مع باقى الثوار على مدينة نانكنج وبدأ الزحف على بكين وحين رأى الإمبراطور الضعيف ما فعله الثوار فكر في الهرب وشعرت "يهونلله" بأن أحلامها تكاد تنهار قبل أن تتحقق ، فحاولت منع الإمبراطور من الهرب ، وتشجيعه للدفاع عن عرشه وتذكرت ذلك الضابط الشاب "يوكنج" الذي دافع عن المحظيات الستين في طريق حضورهم إلى القصر الإمبراطورى وطلبت من الإمبراطور أن يرسل في استدعائه ليتولى قيادة قوات الإمبراطور لمواجهة الثوار ، ونزلت إلى الشعب تدعوه لحماية الإمبراطور وبالفعل استطاعت "يهونلله" أن تكسب حب الشعب كما كسبت قلب الإمبراطورة الأم والإمبراطور من قبل ، واستطاع "يوكنج" أن يخمد الثورة وأصبح موضع تقدير ورضا الإمبراطور .

توالت الأفراح على "يهونلله" بإنجابها ولى العهد وكانت نتيجة ذلك ترقيتها من جانب الإمبراطورة الأم إلى مقام الزوجة الأولى ليصبح مسماها بعد ذلك "تزوهس" ثم ماتت الإمبراطورة الأم بعد ذلك وأصبحت هي كل شيء في الإمبراطورية يثق الجميع في القصر وخارجه بحكمتها ورجاحة عقلها حتى أن الشعب لقب "بوذا العجوز" .

أثناء اختيار المحظيات الإمبراطوريات الستين شعرت بالراحة لإحدى المحظيات أثناء الرحلة وأصبحتا صديقتين وكانت هي أقرب المحظيات إلى قلبها بعد ذلك وهذا ما جعلها تطلب من الإمبراطور أن يرقيها إلى مقام الزوجة الثانية عندما أصبحت هي الزوجة الأولى وأطلق

عليها لقب "تزو آن".

رأى الإمبراطور الكسور أن "تزوهس" تتمتع بالحكمة ورجاحة العقل فجعلها مستشارة البلاط في كل أمور الإمبراطورية وكانت في ذلك الوقت لم تتجاوز الخامسة والعشرين، وأصيب الإمبراطور بمرض أقعده لتصبح هي صاحبة الأمر والنهى في الإمبراطورية خاصة وأنها أم ولى العهد ولم يكن من السهل أن تحكم قبضتها على سدة الحكم في الإمبراطورية بحجم الصين بها ما بها من الاضطرابات والمؤامرات والتناقضات وهو ما اضطرها إلى القسوة والانتقام من القوى المتناصرة بكل الوسائل لكنها فوجئت بما لم يكن في الحسبان وهو معاودة الإنجليز والفرنسيين طلبهم بفتح الصين بكاملها، فهموا بإدخال الأفيون إليها وجعل تجارة الأفيون مشروعة، وكانوا من قبل قد شنوا حربا على الصين لنفس السبب، واستولوا على "كانتون" وأرسلوا حاكمها مقيدا بالأغلال إلى الهند وزحفوا إلى بكين، وهرب الناس والإمبراطور الذي رفض الاستماع إلى نصيحة "تزوهس" بالبقاء في العاصمة لحماية شعبه لكنه رفض وواصل هروبه هو وأمراءه ومحظياته، فلم تقبل "تزوهس" بهذا الهوان وطلبت من الإمبراطور أن ينيبها في جميع حقوقه الرسمية ففعل ذلك لعدم وجود حل آخر.

بعد أن أصبحت "تزوهس" هي المتصرفة قانونا أصدرت مرسوم بجمع الجنود من الأقاليم للدفاع عن المدينة المحرمة ومواجهة الأعداء. لكن الأمير "جونج" أخ الإمبرطور كان قد وقع معاهدة مع المعتدين سمح بموجبها لهم بممارسة تجارتهم في جميع أنحاء الصين فأعلنت رفضها لكل ذلك وعزلته من منصبه.

في ذلك الوقت كان الإمبراطور على وشك النهاية بعد أن ساءت صحته والتف حوله ثلاثة من الأمراء الطامعين في الوصاية على ولى العهد من "تزوهس" القاصر، وكانوا يعلمون أنه من الصعب الوصول

إلى ما يحلمون به إلا بإبعاد "تزوهس" أو الإيقاع بها ، وكان لابد للأمر من مكيدة فاتهموها بأنها على علاقة بالضابط "لوكونج" الذي كانت الإمبراطورة تثق فيه وتقربه وألحوا على الإمبراطور أن يعتقلها لكن الإمبراطور رفض في بداية الأمر ثم وافق على أن يؤخذ ولى العهد منها ويعهد بتربيته إلى زوجة الأمير "لى" أحد الثلاثة الطامعين في الوصاية بعد أن أحاطوا الإمبرطور بالدسائس و'لنميمة عن سلوك الإمبراطورة الشائن الذي يتحدث الجميع عنه ويجعلها غير جديرة بالوصاية على ولى العهد ، وحاولت الإمبراطورة لقاء الإمبراطور للدفاع عن نفسها لكنهم كانوا قد ملأوا قلبه بالفتنة فرفض لقاءها .

أدركت الإمبراطورة أن الحل الوحيد لمواجهة كيدهم هو التصرف بنفس الطريقة وبدأت في استخدام قدراتها النسائية في التخطيط الكيدى فأرسلت إلى الأمير "جونج" ليعود إلى منصبه وطلبت منه إرسال جيش إليها ، فأدرك المتآمرون ما تعده لهم فألحوا على الإمبراطور أن يصدر مرسوما بتعيينهم أوصياء على ابنه بعد موته ، وتوفى الإمبراطور بعد مدة وأصبح ابنه "تونج شى" إمبرطورا على البلاد ، وهم أوصياء عليه فبدأوا الحلقة التالية من كيدهم ضد "تزوهس" فأصدروا قرارا بتعيين الزوجتين "تزوهس" ، "تزو آن" في مقام واحد وأن يطلق عليهما معا لقب الإمبراطورة الكبيرة ، وذلك خوفا من موالاة جيوش منشوريا "لتزوهس" وأخذ المتآمرون يصدرون المراسيم التي تخدم أغراضهم لكن "تزوهس" كانت تخفى خاتم المملكة ولم تسلمه لهم ، وهذا ما جعل المراسيم معدومة القيمة ، فاتهم الناس الأمراء الثلاثة بالتزوير والخداع ، وثاروا عليهم وكانت "تزوهس" في الوقت نفسه تغذى هذه الأفكار ، وتكشف فساد هؤلاء الأمراء وإهدارهم لأموال الشعب واستيلائهم عليها يعاونها في ذلك "لوكنج" ضابطها المخلص ، ونجحت خطة "تزوهس" وعقد الأعيان اجتماعا أقاموا فيه الإمبراطوريتين وصيتين

على العرض وعلى الإمبراطور القاصر على أن تجلسا معا على العرش مع إسدال ستار يكون حاجزا يحجبها عن أنظار الوزراء .

وبعد الجنازة مباشرة ضربت "تزوهس" ضربتها التي فاجأت بها الجميع بإقالة الأمراء الثلاثة ، وحين اعترض الأمير "لى" أمرت بالقبض عليهم ومصادرة أملاكهم وعقدت لجنة إمبرطورية لمحاكمتهم ، ورأت اللجنة أنهم يستحقون الموت بالتعذيب ، لكنها كانت رحيمة فسمحت لهم بالانتحار .

ولأن "تزوهس" امرأة ذكية كانت تصدر المراسيم باسم ابنها لعلمها أن حكم المرأة قد يغضب الرجال - رغم أنها الحاكم الفعلى للبلاد - وتظهر هي في الأمور التي تحتاج إلى عطف أو منح ، حتى أن الشعب دعاها بالأم العطوف رغم أنها طوال فترة حكمها كانت مجردة من الرحمة .

حتى الأمير "جونج" الذي أنقذها وأنقذ عرشها لم يسلم من انتقامها ، فقد أرسلت "خصيها" يجمع الضرائب لكنه كان متعسفا قاسيا حتى ضج منه الحكام وأرسلوا الشكاوى ضده إلى الأمير "جونج" فاتجه إلى شريكتها "تزو آن" وإصدار مرسوم بقطع رأس الخصى بلا محاكمة حتى لا يعطى "تزوهس" الفرصة للاعتراض وحماية "الخصى" لكن "تزو آن" رفضت في بدء الأمر خوفا من غضب شريكتها لكن جونج استطاع إقناعها ولم تعلم "تزوهس" إلا بعد تنفيذ المرسوم ، وحين علمت "تزوهس" منعت شريكتها من التوقيع على المراسيم وأمرت بالقبض على الأمير "جونج" مدعية أنه يدبر لخيانة ونفته خارج المدينة المحرمة .

بلغ ابنها الإمبراطور "تونج شى" سن الرشد وتنازلت الوصيتان له عن حقوقهما واختارت له الإمبراطورة الأم زوجة شابة وابتعدت عن شئون الحكم لكنها رأت أن ابنها خليعا متغطرسا لا يحترمها ولا

يستشيرها في الوقت الذي يلجأ فيه إلى "تزو آن" ويأخذ برأيها واكتشفت أيضا أن التي تشجعه على ذلك وتساعده هي زوجته التي اختارتها له بنفسها ، لكن الأمر لم يدم أكثر من ثلاثة أعوان ليترك الإمبراطورية بكاملها إلى مثواه الأخير وتلحق به زوجته الشابة - كما أعلن - منتحرة في ظروف ولأسباب مجهولة دون أن يكون لهما وليا للعهد .

كانت الإمبراطورة الأم مهووسة بالحكم وخشيت أن يزول ملكها لأن ابنها لم ينجب لذلك زوجت ابنة أختها من الأمير "شون" أحد أبناء أسرة "المانشو" وأنجبت ابنا ذكرا وكان ذلك الطفل هو مسمار جحا فقد دعت إلى عقد جلسة عاجلة بعد وفاة ابنها دعت فيها إلى تعيين ذلك الطفل وريثا للعرش وعاونها في ذلك قائد حرسها الضابط "لوكنج" وأنصاره وأرسلته لإحضار الوليد الذي كان في القصر قبل أن يتحرك المعارضين ، وصالحت "تزوهس" شريكتها وعادا لممارسة الوصاية على الإمبراطور الصغير ، وهكذا استطاعت "تزوهس" الاحتفاظ بمقعد الإمبراطورة .

شعر "لوكنج" أنه هو الذي استطاع أن يعاون الإمبراطورة في الحفاظ على العرش وبدأ في معاملة "تزو آن" بفظاظة وادعاء ألفاظ لنفسه لا يستحقها ، واشتكت "تزو آن" لـ "تزوهس" من عجرفة "لوكنج" واتهمتها أنها هي السبب في ذلك بمساندتها له حتى بلغ به الأمر أن يتصرف وكأنه هو الإمبراطور الفعلى للبلاد ، وازداد الشجار بين المرأتين وآثرت "تزو آن" أن تبتعد قليلا عن مسرح الأحداث ، لكن تزوهش حملت إليها الكعك وذهبت لمصالحتها وتطييب خاطرها - هذا ظاهر الأمر - لكن الحقيقة أن مرضت بعد هذه الزيارة مرضا شديدا ومات ليتردد في القصر بعد ذلك أن الكعك كان مسموما ، ورغم خلاصها من شريكتها تفكر فيما قالته وتنبهت بالفعل لخطورة "لوكنج" ورأت أن دوره قد انتهى ولأنه ساعدها كثيرا فإنها كانت رحيمة به وأمرته بالانتحار فقد

تقديرا لخدماته الجليلة .

استمرت "تزوهس" تحكم البلاد بمفردها حتى بلغ الإمبراطور الجديد سن العشرين فسلمته مقادير الحكم وكانت قد بلغت الخامسة والخمسين فآثرت الراحة وابتعدت تاركة كل الأمور للإمبراطور الجديد وأخذت تنفق ببذخ لكنها كانت تعانى من الفراغ الذي لم يدم طويلا ، فأثناء احتفالها بعيد ميلادها الستين عام ١٨٩٤ ابتدأت الحرب بين الصين واليابان دون أن يأخذ الإمبرطور رأيها وقاومت الإمبراطورة ومستشاروها تقسيم الصين وتقطيع أوصالها بعد انتصار اليابان في حربها التي تولتها بالحصول على مقومات الثورة الصناعية وقامت حركة مؤيدة لذلك وأصدر الإمبراطور عدة مراسيم للسير بأساليب الغرب مؤيدا تلك الحركة ، فجن جنون الإمبراطورة وساءت العلاقة بينهما وسعى الإمبراطور للقبض عليها واعتقالها في جزيرة صغيرة بتهمة الإسراف وتبديد أموال الدولة ، وعلمت "تزوهس" التي كانت لا تزال تحتفظ بعيونها وآذانها تراقب وتسمع وتعد أنفاسه ، فأمرت هي بالقبض عليه وإيداعه السجن في أحد القصور ، ونقض مراسيمه لتمسك من جديد بمقاليد الحكم .

في عام ١٩٠٠ قامت في الصين حركة "الملاكمون" البوكسرز بعد أن ضاق الصينيون من تدخل الأجانب الذين أطلق الإمبراطور يدهم في كل شئ واستطاعت "تزوهس" أن توجه جهودهم وغضبهم لمقاومة الغزاة بدلا من مواجهتها لكن الحرة دخلها الغوغاء يذبحون الأجانب بلا تفريق وهو ما دعا الجيوش المتحالفة إلى مهاجمة بكين مرة أخرى ، ولم تجد "تزوهس" إلا الهرب بعد أن دخلت جيوش انجلترا وفرنسا وألمانيا واليابان وأمريكا إلى بكين وسلبتها وأحرقتها انتقاما لقتل مواطنيها .

عاشت تزوهس حياة الذل والفاقة أثناء هربها وحاولت الانتحار

بعد أن انتحر حوالى خمسمائة من نساء الطبقة العليا ، لكن المحيطين بها أقنعوها بالتراجع والموافقة على عقد صلح لحماية البلاد ، وعادت الإمبراطورة لتواصل حكمها للصين في ظل الظروف الجديدة .

وفى عام ١٩٠٨م أثناء مرضها دبرت موت الإمبراطور السجين "كونج" ليخلفه على العرش ابن أخيه الصغير "بوبى" وتبقى هي وصية على العرش أو بمعنى أدق الإمبراطورة الفعلية ، لكن الموت كان أسرع من أن تتحقق رغبتها ، ففى نفس اليوم الذي تم تعيين الإمبراطور الصغير فيه وتعيينها هي وصية على العرش وافتها المنية وأسدل الستار على واحدة من أشد نساء الأرض ضراوة وكيدا .

* * *

obeikan.com